الصدام ترعاه المصالح

الثقافة أو التمدن أو الحضارة، مصطلحات تحيل إلى معاني باعثة على الطمأنينة، وبالتالي فهي تبتعد عما يولد الصدامات والشرور، لأن هذه تحتاج إلى رعاية همجية على حد تعبير جلبير الأشقر.

إن أحد المعاني التي يبعثها في النفس مصطلح الحضارة، هو أن الموصوف به تجاوز مراحل كثيرة في حياة البشرية، تقطع نهائياً مع شرائع الغاب ومع العدوانية ليصبح أكثر رقياً، وليطور أساليب حياته وفكره إلى مستوى التعايش السلمي (الحضاري) مع الآخرين، لأن مفهوم الثقافة في مراحل تطوره كما يرى تيري أيجلتون .. أصبح يتطابق مع مفهوم ((الكياسة)) ثم يتطور إلى التطابق مع مفهوم ((الحضارة)) وأن التعالق بين التصرف المؤدب والسلوك الأخلاقي جعل الناس يجدون الحضارة في مصطلح ((جنتلمان)) الإنكليزي(1). فالحضارة إذاً تقطع مع ما لا ينسجم مع الكياسة، ومع ما لا يجب أن يقوم به الجنتلمان، بوصفه ممثلاً لقيم رفيعة.

إذن في طيف المعاني التي تحملها الحضارة نبذ للعنف، وإعمال لكل القوى المسالمة والطيبة، في تطور البشرية. فكيف تمت توليفة الصدام مع الحضارة ؟ ولماذا ؟ طالما أنهما ينتميان إلى عالمين أو حقلين نقيضين، حقل السلام (الحضارة) وحقل العنف (الصدام).

من هنا أرى أنه من الواجب البحث عن تأصيل الصدام في حقل آخر يحتمله ويرعاه، بل يتجانس معه باعتبار أن حقل الحضارة ومفهومها لا يحتمله.

لا يعني هذا أننا نبحث عن نفي الصدام أو الصراع ـ على ما بينهما من خلاف في المفهوم ـ عن ميادين الحضارات، فقد اتسم تاريخ البشرية بهذا الصدام، ولقد أشرت سابقاً إلى أن العلاقات أو المحطات البارزة في تاريخ البشرية هي علاقات الصدام. لكن المقصود أن الصدام يتأصل في حقل المصالح، مصالح القوى المتناحرة والباحث كل منها عن تحقيق مكاسب دون أن تحسب حساباً للأخرى، بل يصل إلى حد محاولات إلغاء الآخر والقضاء عليه، بذلك يكون المناخ أكثر ضماناً لتحقيق المكاسب المطلوبة، وهذا يعني حتمية الصدام، انطلاقاً من حق المصدوم في الدفاع.

إذا كنا قادرين على الإشارة إلى صراع بين قوتين تنتميان إلى حضارتين متخالفتين بأنه صدام حضاري، فماذا نسمي الصراع الذي يصل حد الصدام بين قوتين من حضارة واحدة، وما أكثره كما سنرى؟ هل هناك ما يفسره سوى المصالح، طالما أننا لا نجد له تفسيراً في التفارق بين الحضارات؟

إن التفسير المنطقي والواقعي، والذي يشير إلى المبرر الأقوى في تحديد أبعاد الصراعات، هو أن نبحث عن المصالح التي تستهدي بها القوى المتصارعة، حتى لو وضعت الدين والمبادئ والقيم في واجهة مبرراتها.

الإشارة إلى المصالح:

قد يقول قائل أو يسأل سائل، وهل الحضارات هي منظومات قيم فقط؟ أليس للمصالح نصيب فيها؟

نعم، إن للمصالح فيها نصيب، وقد يكون العمل القيمي الذي يبقى على الأيام هو نتاج دافع مصلحي، أو أن مصلحة معينة هي التي قادت إليه، فلا شك أن الكثير من الآثار الشاهدة على الحضارات سواء كانت آثاراً مادية أو معنوية، كانت دوافعها مصلحية، فلم تقص شهرزاد حكاياتها لتصبح بهذه الشهرة والامتداد العالميين، بل لتحمي نفسها من القتل ولتحمي بنات جنسها وفي ذلك مصلحة، وإذا بالمصلحة تنجلي عن عمل حضاري خالد.

الجانب المصلحي في الحضارات ينتهي بانتهاء المصلحة أو تحققها كما بانتهاء أصحابها، ويبقى الجانب القيمي، وفي الأعم الأغلب هو الذي يطلق عليه حضارة، سواء تمثل في منتجات مادية أم لا.

والمصالح في الحضارات ليست واحدة فهناك مصالح آنية تنشأ وتزول بسرعة وينقضي أثرها في وقتها، بينما هناك مصالح ممتدة عبر الزمان والمكان، وتترك آثاراً ممتدة عبر الزمان والمكان، وتتحول إلى رموز وقيم وتدخل عالم البقاء سواء لفترات قصيرة أو طويلة أو يعانقها الخلود.

إن ما يطمح إلى الخلود، قد يكون مالكاً لعناصر ومقومات البقاء فيبقى، وليس بالضرورة أن يبقى عبر الصدام، فينتمي إلى عالم الحضارة بالمعنى الشائع أو المتعارف عليه، أما عالم المصالح، فشيء آخر، إذ أن المصلحة لكي تتحقق قد يتوجب عليها أن تزيل مصلحة أخرى لآخرين من أمامها تشكل عقبة في طريقها فتتصادم المصلحتان، سواء كانتا تنتميان إلى حضارتين مختلفتين أو إلى حضارة واحدة، المصالح تتناقض بينما القيم تتكامل، يكمل اللاحق السابق ويسد ثغراته بدل أن يستغلها، ويدرجه في منظومته بدل أن يتجاوزه سلبياً.

كلا الفعلين ينتميان إلى حضارة، لكن ما هو زائل أو غير باقٍ، لم يعد يشكل جزءاً من الحضارة إلا بالمعنى التاريخي الإخباري الشاهد على الفعل، أما الباقي فهو بامتداده وبقائه شاهد ودليل وعنصر حي بنفسه أو بغيره، بمعنى بدخوله كعنصر أو جزئية في حضارات أخرى شكل لها حافزاً أو مساعداً أو منطلقاً. وهذه تتكامل ولا تتصادم، ومن هذه القيم ما لا تستطيع الأيام أن تجد له بدائلاً. هل نستطيع القول إننا يمكن أن نزيل أو نلغي الفلسفة اليونانية ثم نتحدث عن تاريخ الفلسفة؟ هل نستطيع أن نلغي أو نزيل رياضيات إقليدس و فيثاغورث والخوارزمي، ونلغي اكتشاف الهند للأعداد و اكتشاف العرب للصفر ثم نتحدث عن تاريخ الرياضيات واعتباره أحد مكونات الحضارة الحديثة؟

لا أرى أن غياب مفهوم المصالح عن الكثير من الكتابات التي ناقشت الموضوع، يعني أن أصحاب هذه الكتابات قد غاب عنهم دور المصلحة في إحداث الصراعات والصدامات. لكن طغيان المصطلح الهنتنجتوني على ساحة الموضوع عمم

مفهوم ((صدام الحضارات)) حتى أصبح محور الحديث تأييداً أو شجباً. وقد وردت الإشارة إليه عند بعض الكتاب لكن دون أن يعطى حقه من البحث، ربما لأن هناك تفعيلاً قوياً لمصطلح هنتنجتون بحيث أن المطلوب إخفاء غيره باعتبار استخدامه كمبرر، أو الحاجة إليه في تطبيق بعض السياسات للقوى التي ترعاه، وإن استخدام غيره بشكل واسع لا يصب في مصلحة هذه القوى، وسيفتح الأعين على حقائق يطلب أن تبقى متوارية، على الأقل ريثما يتم إنجاز مشروع ما.

ونجد مفكرين عالميين كباراً يترددون بين اعتبار الثقافات أو المصالح سبباً للصدام. فأنطوني جيدنز عالم الاجتماع البريطاني المبرز، نجده لا يخرج من دائرة التأثير الهنتنجتونية، وربما كان ممثلاً لقوى تساير مفاهيم هنتنجتون، فهو مستشار لرئيس الوزراء البريطاني (بلير)، يقول: ((ولكن حيثما تتجه الكثير من الثقافات بقوة نحو التماس ببعضها البعض على نحو ما نشهده في الأوضاع الاجتماعية الراهنة، يصبح الصدام العنيف بين الأصوليات موضع اهتمام جاد وخطر))(2). ولكنه لا يلبث أن يصحح المسار لأفكاره ويعترف: ((إن العنف ينشأ ببساطة في غالب الأحيان من صدام المصالح والصراع من أجل السلطة))(3).

بهذا الوضوح الشديد يعبر جيدنز عن دور المصالح في الصدام لكن دون أن يغوص في شرح ذلك وإثباته تاريخياً.

لقد أورد تعبير ((صدام المصالح)) الدكتور محمد الجبر، لكن دون شروح أو تعقيب أو متابعة ما أبقاه بعيداً عن توصيف الحالة، أو شرح المقصود منه، أو دون وضعه كمقابل أو بديل أو منافس لـ ((صدام الحضارات))(4).

وإذا كان إغفال الحديث عن المصالح هو السائد، وأن بعض الإشارات إليها لم تكن كافية، فإن إشارات أخرى ألصقتها بجهة دون أخرى، فالمصالح هي التي تقود الغرب وتوجهه في علاقته بالآخر كما يرى د. محمد عابد الجابري : ((الغرب مصالح، ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية(الغرب = المصالح) إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب المغالطي التمويهي السائد في الغرب...))(5).

وتعقيباً أو استدراكاً على قول الجابري، نرى أنه ليس هناك قوة صادمة عبر التاريخ، كانت بعيدة عن المصالح في توجهها لصدم الآخرين وغزوهم، وهنا قد لا يتساوى الطرفان المتصادمان فقد يكون الصدام بينهما على ما يسعى كل منهما للاستحواذ عليه، كصدام قوى الاستعمار الأوربية في الحربين العالميتين وأساسه على المستعمرات والنهب، وقد يكون الصدام من قبل جهة لاستغلال أو استعمال جهة أخرى، وهذه الجهة الأخرى تدافع عن نفسها، فلا يتساوى الموقفان، كدفاع البلدان المستعمَرة عن نفسها ضد القوة المستعمِرة.

إن حروب فرنسا وبريطانيا للاستيلاء على طريق الهند، لا يمكن مقارنتها بمواجهة الشعب المصري لغزو كلا الدولتين لمصر باعتبارها أهم محطات هذا الطريق. فالصراع بين بريطانيا وفرنسا صراع وصدام بين قوتين متناحرتين (مع انتمائهما إلى حضارة واحدة في العالم الهنتنجتوني) تسعى كل منها للحصول على غنيمة، في حين لا تسعى مصر إلى الحصول على هذه الغنيمة من مواجهتها لهما، فغنيمتها لا تتجاوز السلامة والحرية.

وسياسات الفصل العنصري التي مورست في جنوب أفريقيا لم تكن تهدف لأكثر من أن يتمتع البيض الغربيون بالخيرات الوفيرة التي تزخر بها الأرض الأفريقية، مما أدى إلى سياسة ونشاط عنصري سيبقى وصمة في جبين الحضارات التي تدعي التميز، كما استدعى رد الفعل والمقاومة. وليس ببعيد عن هذا ما تفعله الصهيونية المحسوبة على الحضارة الغربية في فلسطين.

وهكذا كل صراعات القوى الاستعمارية، سواء كانت أوربية أو غير أوربية، فهي في سبيل مصالحها كصراع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية قديماً، وكذلك صراع القوى الصادمة مع الشعوب المراد استعمارها واستغلالها.

المبادئ ليست في صلب المشهد:

وكي لا نبدو وكأننا نكرر النغمات التي يعزف عيها الكتاب العرب، والهادفة فقط إلى تبرير المواقف العربية وإبراز دور العرب والدفاع عنه، ومع أن هذا

openkanal.com

شيء لا يعاب، إلا أن هدف البحث لا يتوخى هذا الغرض إلا جزئياً أي من الجانب الذي يخدم فكرة البحث، فإننا نشير إلى أن الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت في طور القوة والتمدد صدمت جيرانها، ولم يكن هذا الصدم بعيداً عن المصالح المحركة والكامنة في حقيقة التوجهات الإسلامية، مع أن المسلمين يصرون على أنها كانت من أجل المبادئ ونشر القيم الإسلامية البعيدة عن المصالح المادية الآنية. ولا بأس من الإشارة إلى ذلك دون أن ينقص من المكانة التاريخية للفتوح، وفي سبيل ذلك يمكن الإشارة إلى البحث القيم الذي قدمه المفكر خليل عبد الكريم، وهو كتابه ((شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة)) بأجزائه الثلاثة(6).

إن هنتنجتون الناطق باسم (بعض) الغرب وبعض مصالحه، لا يجد الإمكانية لإقناع حتى مواطنيه بترسيمته الصدامية حتى أن الكثير منهم أوضح تهافتها. ينقل الجابري عن غراهام فولر وهو باحث مرموق في مؤسسة ((راند)) الأمريكية، رده على هنتنجتون في مقال بعنوان: (الأيديولوجيا المقبلة) نشرها في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية ربيع /1995 قوله في هذا المقال: ((إن الصدام الحضاري ليس صداماً حول المسيح أو كونفوشيوس أو النبي محمد بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ والازدراء التاريخي الذي تنظر به الدول والشعوب الكبرى إلى الصغرى. الثقافة وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سبباً فيها))(7).

بهذا الوضوح الشديد يتم تفجير فكرة الصدام الهنتنجتونية من الداخل، وذلك بإبراز الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الصدام والدافعة له.

المبادئ والعقائد قيم يتم تبنيها، وهي لا تحيل إلى صدام، إن من شأنها أن تبتعد عن الصدام، وإذا كنا نقتنع بنسبية هذا الرأي، فليس لأن العقائد تقع في صلب الأهداف الحقيقية للصدامات، هي قد تستخدم كمحرضات، أو للتغطية، تنشر كيافطات معلنة، لكن الحقائق تبتعد عن إمكانية زجها في صلب الصراعات والصدامات الكبرى في العالم، لقد بينا أن العقائد لا تأذن بالتسامح في كثير من الأحيان، لكنها غير قادرة على صناعة صدامات كبرى بين الحضارات. (في تاريخ الصراعات السياسية والحروب بين القارات والأمم، ليس هناك مواجهة تتم تحت

شعارات الخير والشر، هذه لغة الأديان، وبقدر ما يتم نشر ((المفهوم المطلق)) خيراً أو شراً فوق الصراعات الراهنة، بمقدار ما يدفع العالم دفعاً إلى ما يسمى ((صدام الحضارات)).(8).

لقد ثبت أن العلاقات بين الحضارات المختلفة الديانة، حواراً أو صداماً، لم يكن سببها الاختلاف العقدي أو المناطقي، إنما كانت تستهدي بالمصالح. فمصالح الخلافة العباسية دفعت هارون الرشيد إلى التحالف مع شارلمان الذي كان ملك الفرنك (أو الفرنجة كما سمتهم العرب) بين سنتي 771 ـ 814 م أو إمبراطور الغرب بين 800 ـ 814 م. وكان التحالف ضد خلفاء الأندلس من المسلمين، ولو كان الدين هو الأساس في الصراعات،ما كان على الرشيد أن يتحالف مع شارلمان(9).

وفي العصر الحديث نرى علاقة الغرب بالدول العربية والإسلامية ذات العقيدة الدينية الواحدة والمنتمية إلى حضارة واحدة، تختلف من دولة إلى دولة، من تشابك المصالح إلى إعلان الحرب، والعكس صحيح،والمصالح وحدها هي التي تصنع العلاقات.

منذ القديم كانت المصالح هي الهادية، وهي التي تدفع إلى مخالفة العقائد، فالرشيد تحالف مع مسيحي ضد مسلم، وشارلمان تحالف مع مسلم (عدو)، لكن المصلحة جعلت كلا الطرفين يغفلان القيم والمبادئ، وهذا ممتد تاريخياً. وقد أشرنا في الحديث عن دور الدين في صدام الحضارات إلى أفعال الصليبيين الفرنجة في الشرق العربي، والمصالح التي كانت توجه((عصابة البارونات)) مما هو واضح في أن المصالح وليس العقائد تحرك الجيوش. وقد ((كان في سبيل الله والذهب أن خرج الغربيون لغزو العالم في القرن السادس عشر)) بتعبير هنتنجتون(10).

وهذا ليس جديداً في مسار الغرب الناهض، والمستشعر لقوة لا تستطيع كبحها قوى أعدائه أو من تخيلهم أعداءه، فالأطماع لا حدود لها: ((إذ أن الحكام المسيحيين الفرسان والتجار قد ساقتهم المزايا الحساسة والعسكرية والاقتصادية التي نجمت عن تأسيس مملكة لاتينية في الشرق الأوسط فالفرسان من فرنسا وغيرها من أنحاء الغرب الأوربي تحركوا بدافع الأمل في الحصول على الغنائم

Oberkanal.com

واحتشدوا في حرب كان هدفها الصوري تحرير المدينة المقدسة)) (11). ويتابع: ((كانت الدعوة للحرب في الشرق في حقيقتها سعياً وراء استعادة سلطة الكنيسة الغربية في المنطقة، ومحاولة لبسط نفوذ تلك الطبقة البرجوازية في أوربا، والتي بدأت في التطلع إلى السوق والتجارة والتحكم في المد الإسلامي العربي الذي بدأ منذ ثلاثة قرون من الدعوة الإسلامية))(12).

المصالح لا تساير الحقائق:

عندما تبرز العقائد في وجه المصالح، فإن هذه الأخيرة تسعى لتجاوزها بأساليب متعددة. فهي تستخدمها للتبرير، بعد أن ترفعها كشعارات لحراكها، إذ قلما نجد حرباً تعلن رافعة شعارات مصلحية واضحة، دائماً تعلن الحروب تحت يافطة القيم ورعاية المقدس، وإذا لم تسعف القيم أصحاب الحروب ومروجيها وسدنتها، فلا مانع عندها من تجاوز القيم بكل صفاقة ووضوح، وتكون الحرب بذلك فقدت غطاءها القيمي والأخلاقي، وأصبحت شعاراتها أكثر وضوحاً في حيّز المصالح. ينطبق هذا إلى حد ما على الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، فقد عجزت هذه القوى عن توفير الغطاء الأممي (الأخلاقي القانوني الإنساني) للحرب لكن هذا الغطاء غير المتوفر لم يمنع الأطراف الصادمة من إتمام مشروعها الصدامي وتدمير العراق وإحلال الخراب فيه.

ومن الواضح أن هناك متهمين بتصعيد الموقف لمصالح كامنة، فراجح الخوري يرى:((أنه لن تتوقف الأشباح الصهيونية والأصابع اليمينية المتطرفة التي تنشط في كواليس السياسة الأمريكية، قبل أن تضع المسيحية والإسلام في مواجهة حماقة الصدام المطلقة، حيث لا يستفيد أحد في النهاية غير أولئك الذين أطلقوا هذه الرياح ونفخوا في هذه الأشرعة)) (13). ولا شك أن الأشباح والأصابع المشار إليها هي تعبير موارب عن مصالح الفئات المحرضة.

إن من هذه المصالح ما يبدو مباشراً آنياً، ومنها ما يبدو ثأرياً يتوطن الأغوار، ويتوخى طمس حضارات وقيم مغروسة في عمق التاريخ، للاستعاضة عنها بما تدفع

به القوى العولمية المعاصرة، وإلا كيف نفسر الهجوم على كل ما يمثل الأصالة والعمق الحضاري لحضارة الرافدين في اجتياح العراق تحت سمع وبصر القوات الأمريكية الغازية، وبما سيكشف التاريخ أنه بتخطيطها؟! يقول روبرت فيسك: إنه كان شاهد عيان على حرق المكتبات والرسائل والوثائق النفيسة في بغداد وعلى تدمير الآثار ونهبها، وأنه طالب الجنود الأمريكان وحرضهم بنفسه على التصدي للتخريب المتعمد وتدمير التراث دون أن يكترثوا لذلك(14).

هل سيكون هذا إنذاراً للعالم الذي عليه أن يخضع بماضيه وحاضره ومستقبله للأمر الواقع، فلا ترتفع قمة فوق قمة الأمر الواقع، وأن التاريخ أيضاً يجري اصطياده وإجباره على الإقرار بذلك، وإلا فالحرب يمكن أن تعلن عليه أيضاً؟!

إن ما تعلن عنه القوى الاستعمارية في حركتها لاستغلال خيرات الشعوب ونهب ثرواتها، هو لتغطية الحقائق وتجاوزها، وحتى الكلمة المستخدمة للتعبير عن هذا الحراك ((الاستعمار)) تعلن عن زيفها عند الاصطدام بحقائق الأفعال التي قامت بها القوى الصادمة لـ ((أن شرط ((نمو)) الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربة وإلى أمريكة الشمالية، وبالمقابل فإن الغرب هو الذي جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفاً)) (15).

هذا الكلام لسليل الحضارة الغربية، المفكر روجه غارودي السابق لهنتنجتون في دراسة علاقة الحضارات ببعضها. وهو يرى أن الكثير من الحقائق التي تم إعلانها من قبل الغرب عن الكثير من القضايا هو إعلان تنقصه الحقائق، بالتالي هو لا أخلاقي، والمقصود منه التمويه على هذه الحقائق وإخفاؤها، لتناقضها مع القيم التي يتغنى بها الغرب: ((يقال في بعض الأحيان أن النخاسة((اقتصرت))، على تهجير بضعة ملايين من الناس إلى أمريكة، وهذا يعني نسيان أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات. فإذا قدّرنا عدد العبيد المهجرين بعشرة ملايين ـ وهذا العدد هو حد أدنى ـ فذاك يعني إفناء مائة مليون من البشر)) (16). إن محاولة إخفاء الحقائق مسايرة للمصالح ودعماً لها، دفع إلى التعمية على هذه الحقائق حتى لو كانت تاريخية، فالغرب لا يريد أن تذكر نواقصه ومسالبه وهزائمه أو مرارته، فقد طرد غارودي من تونس بتهمة الدعاية المعارضة لفرنسا عام 1945، لأنه أورد

جواب دوبو للسيدة نوزيير بأن أشأم يوم في تاريخ فرنسا هو يوم معركة بواتيي، عندما تراجع العلم والفن و الحضارة العربية سنة /732/ أمام الهمجية الفرنكية(17). وهو يرى أن الاستعمار الإنكليزي والأسباني والفرنسي قد افترى ((بنتيجة الدور الذي قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراء منهجياً لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية)) (18).

وفي إشارة واضحة إلى هنتنجتون وفساد مقولته حول صدام الحضارات، يقول د. عبد الرحيم الكريمي: ((فما يحلو للبعض تسميته صراعاً أو صداماً بين الحضارات، بين الغرب والإسلام، هو في حقيقته الأساسية صراع وصدام سياسي بين الاستعمار ومحاولة سيطرته على العالم وشعوبه المختلفة بما يعرف الآن بالعولمة من جانب والحركة الوطنية بكل مشاربها وأصولها وجذورها الفكرية أو العقائدية أو السياسية من جانب آخر)) (19).

بالتالي فإن ترسيمة صدام الحضارات كما يرى د. الجابري تسكت عن الحروب الدينية في أوربا وعن الحرب الإنكليزية الأمريكية وعن الصراع الإنكليزي الفرنسي من أجل طريق الهند ومن أجل المستعمرات عموماً كما تتجاهل الحرب الأهلية الأمريكية وغيرها(20). كما يتجاهل: ((أن التاريخ العسكري في العالم الحديث... لم يكن تاريخ حروب داخل أوربا وحدها، بل كان أيضاً وبالدرجة الأولى تاريخ الحروب الاستعمارية التي انتصرت فيها أوربا ثم حروب التحرير التي انتصرت فيها شعوب المستعمرات... ، وإذا كان هناك صراع في المستقبل، وسيكون بالتأكيد، فسيكون استمراراً للصراع القديم)) (21).

إنها تعمية على كل ما أحدثه الغرب من شرور داخل منظومته كسلسلة الحروب الأهلية (داخل الحضارة الواحدة) في فرنسا بين سنتي 1562 ـ 1598 بين البروتستانت والكاثوليك وهي تضمر قتالاً من أجل السلطة بين العرش وبين الأشراف، وانتهت بإصدار مرسوم نانت 1598 القاضي بحرية العبادة (22). كما إنها تعمية على محاكم التفتيش سيئة الصيت مثلاً، والتي بدأت بتحريض من البابا ((أنوسنت الثالث)) /1209 لاستئصال الهرطقة وقد كلف بذلك الرهبان الدومنيكان، وقد عملت عدة قرون وشملت فرنسا وأسبانيا وإيطاليا والبرتغال

ومستعمراتها، وتطورت إلى رقابة على الفكر، وقد جرت العادة أن يحرق الملحدون أو المذنبون من قبل المحاكم أحياء (23). وهذا غيض من فيض.

الحقائق التاريخية تخالف نظرية هنتنجتون :

بدت أحداث أيلول /2001 وكأنها تجسيد لرؤية هنتنجتون ونبوءاته، ثم جاءت بعدها الحرب على العراق /2003 داعمة لهذا التوجه، لكن حقائق التاريخ تخالف هذه الرؤية وتبين عدم تماسكها أمام الواقع.

ولو أن هنتنجتون ركز اهتمامه على استقراء المراحل التاريخية الماضية لوجد أن أبرز الصدامات هي تلك التي حصلت ناقضة رؤيته. مما يجعل أطروحته ((صدام الحضارات)) أطروحة للإنزواء الحضاري وليس لصدام الحضارات (24).

أكرر مرة أخرى، إن العقائد سواء أكانت دينية أو سياسية إذا كانت بريئة من المصالح والمكاسب المباشرة، يصعب أن تصنع صدامات كبيرة، لكنني لا أبرئ العقائد تبرئة تامة، من أن يكون لها الدور الرديف أحياناً.

في العصور الحديثة كانت الحروب الكبرى، حروب مصالح لا حروب عقائد دينية أو غيرها، فالحرب بين أمريكا وبريطانيا لم تقم على الانتصار لمبادئ دينية، أو نتيجة التفارق الثقافي، بل كانت حرب تحرير، والحرب الأمريكية الداخلية بين الشمال والجنوب لم تكن حرب عقائد دينية وثقافات. كذلك الحروب الأوروبية العديدة، كحروب بريطانيا وفرنسا، وحروب الإمبراطورية النماسوية مع جيرانها، حتى حروب البروتستانت والكاثوليك لم تكن بريئة من المصالح الكامنة في الحفاظ على النفوذ، ولم تكن هذه الحروب صدام حضارات مختلفة، بل حروب طاحنة بين أبناء الحضارة الواحدة حسب تصنيف نظرية صدام الحضارات .

في الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 كانت قوى مسيحية غربية (بروتستانتية وكاثوليكية) تواجه الغرب المسيحي البروتستانتي والكاثوليكي، وكانت تركيا الإسلامية في مواجهة المسلمين المنضمين للحلفاء بزعامة الشريف حسين، وكل يبحث عن مصالحه، وهذه المصالح هي التي كانت توجه الحرب

بمقدار ما كانت بعيدة عن العقائد التي جعلها هنتنجتون ترسيمة صارمة، وهذا يبعدها عن صدام الحضارات ليدخلها في صدام المصالح.

في الحرب العالمية الثانية 1939 ـ 1945 كانت ألمانيا المسيحية الغربية (البروتستانتية) وإيطاليا المسيحية الغربية (الكاثوليكية) في مواجهة الغرب المسيحي (كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس أيضاً). إذاً الحرب حقيقة هي حرب داخل الحضارة الواحدة كما تم توصيفها من قبل هنتنجتون، فكيف يبرز دور العقائد في مثل هذه الحروب؟!

بالتأكيد لن يكون المستقبل نشاذاً، فالصراعات فيه ستبنى على المصالح التي أثارت هذه الحروب المدمرة لا على العقائد.

حروب التحرير التي خاضتها الشعوب المستعمرة ضد مستعمريها، لم تخضها على أساس الاختلاف العقدي حتى لو كان حاضراً أو تم استنفاره للإفادة منه، كما في حرب تحرير الجزائر، لقد تمت الحروب على أساس النزوع التحرري لشعب خضع لظلم واستغلال قوى النهب الاستعمارية. وكذلك الحروب التحررية الأخرى كالحرب الفيتنامية الأمريكية أو الحروب في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية أو في الوطن العربي.

الصين والفيتنام تنتميان إلى حضارة واحدة هي الحضارة الكونفوشية التي يضعها هنتنجتون مع الإسلام كحضارتين مناوئتين للغرب وتستهدفانه بسبب الخلاف الحضاري، هاتان الدولتان جرت بينهما حرب طاحنة في ثمانينات القرن العشرين. فهل نقول إنها حرب حضارية تستهدي بالعقائد الدينية؟ أم أن رائحة المصالح تفوح منها؟!

المصالح والتفاهم عليها ومعرفة كل طرف لحدوده هي التي حافظت على الحرب باردة ولم تدفعها إلى السخونة بين الاتحاد السوفييتي والغرب بزعامة أمريكا، بعد الحرب العالمية الثانية، ربما للخشية من خراب الحياة البشرية جميعها، أو لاعتبارات أخرى.

الحضارة الأمريكية اللاتينية لم تكن في حالة عداء مع الحضارة الغربية كما يرى هنتنجتون (25). لكن هذا لم يمنع أن تقوم الحرب بين بريطانيا والأرجنتين على جزر الفوكلاند /1982عندما تهددت المصالح.

هنتنجتون نفسه يشير إلى دور المصالح (الثروة) في إحداث الحروب والمواجهات، متناقضاً مع أطروحته الخلافية، يقول: ((قد تؤدي الفروق في الثروة إلى صراعات بين المجتمعات ولكن الدلائل تشير إلى أن ذلك يحدث أساساً عندما تحاول المجتمعات الغنية والأقوى غزو أو احتلال المجمعات الفقيرة أو الأكثر تقليدية. لقد فعل الغرب ذلك على مدى أربعة قرون)) (26).

وهذه شهادة تردف شهادة غارودي السابقة حول الغرب ومصالحه التي تحدث الصدامات.

لقد وجد هنتنجتون أخيراً سبباً للحروب حقيقياً، فلماذا يلصقها بالعقائد؟ ثم ليبحث عن أسباب أخرى سيجدها في الأطماع الإمبريالية، والتنافس على استغلال خيرات الشعوب من قبل القوى الكبرى، كما حدث في الحربين العالميتين.

المصالح تشوه الحقائق:

قلنا إن الحروب والصدامات الكبرى لكي تشن تحتاج إلى غطاء قيمي، بالتالي يصعب أن نجد حرباً أعلنت الأهداف الحقيقية لها من قبل من يشنها، لقد برزت قوى النهب الاستعماري على أنها قوى لإعمار البلدان التي هاجمتها كما هو واضح في المصطلح. بالتالي إن الحديث عمن تتوجه القوى الإمبريالية لضربه، يتخذ منحى قيمياً فتبدو هذه القوى مدافعة وحامية لما هو إنساني وأخلاقي، من هنا تتم (أبلسة) من يتم استهدافه كما يقول د. فيصل دراج الذي ينقل المصطلح عن نعوم تشومسكي وهو يندد بعدوانية السياسية الأمريكية بـ ((أبلسة النظم السياسية))(27).

والأبلسة تشويه السمعة والصورة للمقصود أمام العالم بإلصاق التهم الإبليسية له، وإظهاره رديفاً للشيطان، ومثال العراق مؤخراً دليل واضح. وحديث الرئيس الأمريكي عن محور الشر في العالم يسير في هذا الاتجاه.

إن الدعاية تقوم بدور فاعل في إقناع الناس بأن التوجه لضرب جهة معينة هو أمر مشروع، دينياً وسياسياً وإنسانياً. ((لهذا لم يكن مستغرباً إيمان عامة الإنكليز بأن لكثير من هنود أمريكا أظلافاً وأشكالاً شيطانية. وهي أشكال تعثر عليها في كتابات معظم أنبياء الاستعمار الأوائل الذين اختلط عليهم شكل الكنعاني التاريخي الملعون بشكل الوحش الهندي المنحط)) (28). إلى هذا الحد وصلت الوقاحة والتزوير لتبرير قتل هنود أمريكا من قبل العنصرية الإنكلوساكسونية، علماً أن العرق الانكلوساكسوني كذبة لا يعترف بها علم الأعراق. من أسسوا لها يشيرون إلى خليط مهيمن لجماعات بشرية تسكن الجزيرة البريطانية من الجرمان والسلت والفايكنغز(29). وهم أقوام جمعت بينهم المصالح.

إن إصرار هنتنجتون على أن الصراع بين الحضارة الغربية وكل من الحضارتين الإسلامية والكونفوشية بقوله: ((من المرجح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام والصين متوترة على نحو ثابت وعدائية جداً في معظم الأحوال)) (30). هو نتاج الاستنتاجات التي تشير إليها إرهاصات التقدم في كل من الحضارة الصينية والإسلامية (في بعض الدول الإسلامية)، هذه الإرهاصات تشير إلى مصالح متناقضة ومتنافرة، وهو ما نؤكد على أنه أس الصدام والصراع أكثر من الثقافة والاختلاف الحضاري.

إن طموح الصين أو بعض الجهات الإسلامية أن يكون لهما وزنهما العالمي وأن تكونا قادرتين على منافسة الدول الإمبريالية الكبرى تجعل فتح النار عليهما مبكراً أمراً يدخل في منطق الصدام، ولتبرير أية أعمال تقوم بها الإمبريالية لعرقلة نمو تقدم هذه القوى المناهضة، وهذا ما لا نجده في الموقف من الحضارة الإفريقية أو الأمريكية اللاتينية، يقول منظر صدام الحضارات ((علاقات الغرب مع أمريكا اللاتينية وأفريقيا، وهما حضارتان أضعف ومعتمدتان إلى حد ما على الغرب، سوف تتضمن مستويات أقل من الصراع)) (31).

إن مبرر عدم الصراع بين هاتين الحضارتين وبين الغرب، هو إنما يكمن في ضعفهما أو اعتمادهما على الغرب كما يشير النص، وفي كلا الحالتين لا تشكلان خطراً على الغرب ومصالحه. أليس الدرس واضحاً؟ من يريد تجنب أذى

الغرب و الصدام معه فعليه أن يكون من الضعف والتبعية بحيث لا يستشعر الغرب أي خطر منه على مصالحه لا الآن ولا غداً. أما إذا كانت المنافسة محتملة والخطر مرتقباً، فالأولى تحطيم هذا الخصم الموعود قبل أن يصلب عوده، ويصبح تحطيمه مكلفاً أكثر أو متعذراً.

لقد كانت مصالح أمريكا هي التي أوجدت حركة الطالبان ومنظمة القاعدة على هذا المستوى من القوة، وقد أمدت الطالبان بالقوة إلى أن : ((استولى هؤلاء (الطالبان)، على الجزء الأعظم من البلد (أفغانستان)، من 1994 ـ 1996، بمباركة من واشنطن، التي كانت تحركها اعتبارات سياسية ونفطية، قبل أن يتبين أن الطالبان لا يمكن ضبطهم)) (32). لكن أمريكا لم تلبث أن أبلست الطالبان وألصقت بهم أبشع التهم التي كانت قد ساعدتهم على تنميتها وتوظيفها في عملية انقلابية عندما وجدت أن مصالحها تقتضي حضور جيوشها إلى أفغانستان لاعتبارات متعددة مصلحية في أساسها، لا يصح أن ينوب فيها أحد عن الأمريكيين.

القوة التدميرية للمصالح:

تنطوي المصالح على قوة تدميرية كبيرة، إذ عليها أن تزيل أية عراقيل تعترضها لضمان استمراريتها وفعاليتها. وواضح أن العنف لا يولد إلا العنف، إذ ((في عالم حيث تتعمق التفاوتات بلا رحمة، سواء في الوقائع الاجتماعية أو بين الأمم، وحيث شريعة الغاب وحق الأقوى يسودان بشكل مطلق، تولد همجية البعض همجية البعض الآخر حتماً، ويخلص ((التهديد بالرعب)) إلى النزول بثقله على الجميع، في تنوع أشكاله)) (33).

بالتالي إن من شأن وضع الاعتبارات المصلحية فوق كل الاعتبارات الأخرى، فتضرب بمصالح الآخرين عرض الحائط ولا تولي أي اهتمام للقيم، في واقع التمركز الضيق على الذات، أن يؤدي إلى تعميق الكراهية بين القوي والضعيف بل بين القوي والأقوى، مما يبقي الأجواء قادرة على إنتاج عنف مضاعف. ينقل جلبير الأشقر عن بعض الصحف الغربية الحديث عن كره أمريكا الذي لم يعد حكراً

على اليسار الممثل ببعض الصحف، فالوسط واليمين الأوربيين معاديان هما أيضاً لأمريكا، بل إن فيهما الأكثر عداء لها، حتى في الإدارة البريطانية بشهادة صحف شهيرة فيها كالدايلي تلغراف والتايمز(34). وقد رأينا مثل ذلك في إحصائية بفرنسا.

لقد كان هدم الحضارات السابقة من قبل الحضارات الناهضة والغازية الصادمة، سنة من سنن الصراع، كي لا تعود لتشكل خطراً على مصالحها، بل كي تدفعها إلى عالم النسيان والإهمال، وتبعد المقارنة، فالناس لا يقارنون إلا ما هو سيء بما هو جيد، وقد لا يكون هذا في مصلحة القادم الجديد.

يقول غارودي: ((وإن أول انفصام كبير قد حدث بعد إبادة هنود أمريكا. وقد شرع غزاة كبار طغاة بهدم حضارات عظيمة عريقة وذبح الشعوب كما فعل (هرمان كورتز) بـ (الآزتك) في المكسيك، و(بدرو دي أزفيدو) بالـ (مايا)، و(بيزار) في (الآند). وعندما تشتت شمل الهنود بنتيجة الأمراض الأوروبية التي لم تكن معروفة في الأمريكيتين مثل الجدري أو الزهري)) (35).

ويبدو أن سلوك الغزاة واحد في كل العصور، فقد دمر المغول بغداد عندما دخلوها غازين عام 656 هـ وكذلك فعل الأمريكان عام 2003 م، حيث انصب التدمير والحرق والسلب والنهب على الكنوز الأثرية التراثية التي تحفظ ذاكرة الأمة وهويتها الحضارية، برعاية تامة من الجيش الأمريكي الغازي وعن سابق تخطيط وإعداد. والسؤال إذا كان هدف الأمريكان السيطرة على ثروات العراق ووضع المنطقة تحت اليد الأمريكية، فأي ثأر لهم مع كل ما يحيل إلى القيم الحضارية الرفيعة؟!

لا ينصب التدمير على القيم الحضارية التراثية والثقافية فقط، بل قد يصل إلى تدمير مصدر قوت الشعوب لتركيعها، فلم تتردد إنكلترا في تدمير الصناعة اليدوية في الهند واقتصاد الغذاء كله، في سبيل أن تختص الهند بزراعة القطن لزوم صناعة مانشستر[36]. كما يقدم غارودي شهادات ناطقة وواضحة وأخباراً عن النهب والقتل والتدمير الذي أحدثه الفرنسيون في الجزائر(37).

أعود للتذكير بمقال محمد حسنين هيكل الذي يشير فيه إلى أن أمريكا كانت وريثة ثماني امبراطوريات عملت على تحطيم آخرها كالانكليزية والفرنسية واليابانية والألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تفرغت لتحطيم الامبراطوية السوفييتية أو ساهمت في ذلك بدم بارد خلال ما سمي بالحرب الباردة(38).

واضح تماماً أن الكثير من الحضارات الناهضة لم تبن نهضتها على ما أضافته من قيم حضارية، تدفع البشرية نحو الترقي، فقد جاءت هذه في مرحلة تالية. إن النهوض يقوم على قوة البطش والتدمير كما يخبرنا التاريخ، بعد ذلك نصل إلى الإسهامات العلمية والاجتماعية والفكرية، التي تحاول قوة البطش أن تبقى ملازمة لها.

لكن قوة البطش والتدمير لم تبلغ يوماً مثل هذا المستوى الذي بلغته على يد الحضارة الأمريكية، والتي لم يتردد مسؤولوها في استخدام هذه القوة، خاصة عندما تم ضرب اليابان بالقنابل الذرية وانتهاء بضرب العراق، حيث يقال إن اليابان قد وافقت على إنهاء الحرب وأشعرت الحلفاء بذلك قبل ضربها بالقنابل النووية لكن أمريكا أصرت على استخدام الذرة لتشير للعالم إلى المصير الذي سيلقاه من يقف في وجه جبروتها القادم والصاعد. والذي أكدته حروبها هو الإقدام على استخدام مالا يكاد العقل يستوعبه من الأساليب الجهنمية التي ابتكرها وحشدها عقل حضاري أرعن، حظه من الإنسانية التي يدعي الدفاع عنها قليل. فـ (((الغرب) وحده، وهو شبه جزيرة من آسية ملقاة خلف (الأورال) وعلى شواطئ المتوسط، يبدو بمذهبه الثنائي وبفرديته وبمذهبه العقلي الوحيد البعد استثناء بائساً في الملحمة الإنسانية التي بدأت قبل ثلاثة ملايين سنة في أفريقية والتي تستمر خلال ستين قرناً في جميع القارات حتى عصر النهضة الغربية، بامتلاك أسلحة أكثر تدميراً جداً من الأسلحة السابقة، وقد استعبد (الغرب) العالم وسيطر عليه بخنق الثقافات الأخرى)) (39).

لكن الأفعال القذرة التي تقوم بها جهات ما، تدفع جهات أخرى في مواجهتها للجوء إلى ما يجانس هذه الأفعال ويتفوق عليها، فـ ((بدل أن تكون المواجهة الحالية((صداماً بين الحضارات))، هي إذاً، بحق، صدام بين تلك الهمجيات التي تفرزها الحضارات، بمقادير متغيرة، خلال السيرورة التاريخية والديالكتيكية

للحضارة،مثل براز يزداد حجمه بقدر ما تكون المجتمعات شرهة، ويهدد اليوم،مرة أخرى، بإغراق مكتسبات الحضارة الأساسية في همجية معممة)) (40).

الملفت في الكلام السابق أن صاحبه يعفي الحضارات وشعوبها من مسؤولية ما يقوم به الهمجيون فيها، ولا شك أننا في عصر الديمقراطيات والتغني بها لا يصح أن نغفل ذلك فنبرز القوى الشعبية لا حول لها ولا طول، وهذه ليست سمة الديمقراطية، هذا في جانب القوى الإمبريالية الصادمة، أما في ردود الأفعال ومحاولات الثأر من قبل قوى أخرى توصف بالإرهابية من قبل هؤلاء، فأمر يحتاج إلى وقفة وتحليل، لأن الإنسان لا يكون إرهابياً أو همجياً بالمجان أو من غير سبب، فالبحث في الأسباب، لا يعني اتهام الثقافة مع عدم إغفال دورها، بل يجب اتهام ظروف القهر والحرمان والدكتاتورية وغير ذلك.

إن تفسير العنف الناتج عن المسلمين مثلاً في غير مكان من العالم بتفسيرات مثل العامل الديمغرافي (التزايد الكبير للسكان ووجود أعداد كبيرة من الشباب العاطلين عن العمل) أو بعدم وجود دولة مركز في الحضارة الإسلامية يلتف حولها المسلمون وتقود نضالهم للدفاع عن الإسلام، أو أن العنف حالة تاريخية إسلامية تغذيه النصوص الدينية، أو الدفاع عن الهوية أو الاحتكاك بشعوب أخرى(41). مع ما في بعض هذه التفسيرات من صوابية وأهمية بعضها الآخر، لا يقدم التعليل الكافي لما ينخرط فيه (بعض) المسلمين من (عنف مضاد)، إنه رد على عنف يتخذ أشكالاً متعددة وتقع كثير من دول العالم العربي والإسلامي ضحيته، وهذا ما يحاول الغرب إغفاله،وقد قامت كل الحضارات بمواجهة صادميها عنفياً عندما وجدت في ذلك مصالحها واستخدمت كل أشكال العنف وأساليبه من أمريكا اللاتينية إلى فيتنام إلى مقاومة النازية في أوربا وصولاً إلى جنوب أفريقيا ومقاومة الفصل العنصري.

ثم إن إحساس الناس المباشر بتضرر مصالحهم وتهديد معاشهم كافٍ لأن يستنفروا، فتحضر الثقافة والهوية وغيرها من خطوط الدفاع. إن مشهدية المسلمين تشير إلى الحرمان والتهميش والغزو والاستغلال ورعاية الدكاتوريات المتأبدة خلافاً لما يشاع، كل هذا يبرز الأسباب الحقيقية في التوجه إلى العنف. ولو لم يكن لدى العرب والمسلمين من الأسباب التي تولد العنف سوى القضية الفلسطينة لكانت

كافية بكل تشعباتها ومفاعيلهاالمواجهة العنف الممارس عليهم بما نراه ونسمعه بل بما هو أشد وأنكى.

والمواطن العربي والمسلم غير قادر على أن يقتنع أن أرضه مليئة بالخيرات التي تعيش عليها شعوب العالم، وهو في الوقت ذاته مليء بالفقر والبؤس والحرمان والجوع، مليء بالقيم والمبادئ ومليء أيضاً بالقهر والدكتاتوريات، مليء بالأمجاد الراسخة ومليء بالهزائم والذل، إنها مفارقات تعمل على إيجاد واقع كاريكاتوري.

بين العولمة وصدام الحضارات:

كثرت المقولات والتوجهات والخطط الغربية وانتشرت كثيراً في العقدين الأخيرين، فمن التبشير بنظام عالمي جديد إلى عالم معولم تزول فيه الحدود من طريق الناس وحراكهم، إلى مقولة نهاية التاريخ وصولاً إلى صدام الحضارات، وإذا كانت هذه المقولات جميعاً نتاج الفرع الأمريكي للحضارة الغربية، فإنها لا تدل على الركون إلى أسلوب تتعامل به هذه القوة مع العالم يكون ناجعاً يجعل جبروتها أكثر ديمومة أو أنها تهتم بتعدد الخيارات في السلب والنهب والسيطرة، مما يعطي تعدد الخيارات النظرية والمشاريع المطروحة للتطبيق.

إن التدقيق يكشف عن بعض التناقضات (كلياً أو جزئياً) بين هذه المقولات أو المشاريع على المستوى الفكري، فكيف نبشر بأن نهاية التاريخ أو نهاية مطاف البشرية ونهاية أحلامها تتحقق بامتداد الديمقراطية الليبرالية كآخر ملاذ للحالمين بالخلاص ـ كما يبشرفوكوياما ـ ليأتي مبشر غيره ويشير إلى تأبيد الصدام بين الحضارات؟ كيف تنقل الديمقراطية الغربية عبر البلدان وحدودها محروسة بشراسة بثقافات تمنع التأثروتحاربه وهي فاعلة في ذلك. بفعل التزمت الحضاري والتحجر الفكري كما يريد هنتنجتون أن يقول؟ هكذا يبدو أن مقولة صدام الحضارات التي تستهدي بالعنف تنسف مقولة نهاية التاريخ التي هي مقولة تبشر بالديمقراطية ـ أي اللاعنفٍ تعم العالم.

المبدأ ذاته نطبقه على مقولتي العولمة وصدام الحضارات، إذ كيف نحلم ونعمل على إيجاد عالم تزال فيه الحدود وتلغى الحواجز من وجه الحراك البشري كما

استطاعت الأقمار الصناعية أن تلغي الحواجز من طريق الاتصالات والبث التلفزيوني، ثم نبشر بعالم تتعالى فيه أسوار الثقافات و الحضارات لتصبح موانع، للفكر وللحرية وللناس والقيم، من أن تشترك في صنع العالم. بل إن من شأن ذلك صناعة عالم لا يمنع فقط، بل يدمر بصداماته كل إمكانية للتلاقي وإلغاء الحدود؟

الحديث عن العولمة يملأ الأفق، والاتجاه نحوها يدفع القوى لإقناع البشرية بجدواها وبالفوائد الجمة التي تؤمنها إزالة الحدود والقيود عن حركة السلع والأموال والناس ـ من أجل هذا توجد المنظمات، كمنظمة التجارة الدولية، وتوضع القوانين والشرائع وتعقد المؤتمرات لنظام استئثاري يفضل البعض تسميته (أمركة العالم).

نظام العولمة هذا يثير الخوف من تحطيم العالم بأساليب أخرى إلى جانب السلاح فـ ((هناك مخاوف من أن تدمر التكنولوجيا العصرية المدنية الإنسانية وتنزع المواطن من إنسانيته وتحوله إلى مواطن معلومات وانترنت، وبالتالي قد تؤدي إلى فقدان القيمة العملية للتجمعات البشرية... ما هو أخطر ... فقد استبدل الإنسان بالكومبيوتر في كثير من النشاطات، الأمر.... الذي أنتج الكثير من الفقراء والقلة من الأغنياء)) (42).

هذا النظام ـ نظام العولمة ـ ينمو ويتطور في أجواء الطمأنينة والهدوء والسلام لا في أجواء الحروب والنزاعات و الصراعات الدولية، من هنا يحصل التناقض بين العولمة وصدام الحضارات الذي يحتاج إلى إدارة الحروب وقيادة الجيوش لا إلى إدارة الاقتصاد العالمي وسياحة الناس.

كل ذلك ـ بتناقضاته ـ صناعة أمريكية مشفوعة بشعارات طنانة، كالقضاء على الإرهاب، ومنع انتشار أسلحة التدمير الشامل، والدفاع عن حقوق الإنسان، وإشاعة الديمقراطية، إذا وجد من يصدق!!

الناس يرون أنها لن تثمر إلا المزيد من النزاعات، فالاخضاع الإجباري للشعوب في سبيل اصطفافات معينة، ثبت أنه لا يحل المشاكل، بل يطمرها ألغاماً تعود للإنفجار في المستقبل.

obeikandi.com

بالتالي فـ ((إن ما يقسم العالم هذه الأيام هي تلك السيرورات التي افترض بها أن توحده. فقوى العولمة، على سبيل المثال، قانعة تماماً برؤية كتل القوة التي يحتمل أن تهددها وهي تتمزق إلى عدد من الأمم الأصغر، والأضعف، كما يكون لها يد في التمزق في بعض الأحيان)) (43).

الحرب على العراق تنسف الترسيمة:

في الوقت الذي يرى كثيرون أن الحرب على العراق في أوائل القرن الواحد والعشرين هي إحدى تمظهرات ترسيمة هنتنجتون في صدام الحضارات، وترجمة عملية لها، فإن هناك من يقرأ الحدث على أنه تعزيز لرأي القائلين بأنها صدام المصالح وتبتعد عن منطق صدام الحضارات، كما أن احتكار أمريكا لإدارة الحرب وتبريرها ومحاولة احتكارها للأرباح المترتبة على إعادة إعمار العراق وإغلاق العراق على جيرانه وإبعادهم عنه وغير ذلك من الإجراءات، يقع نقضاً للعولمة وتوجهاتها. وللتدليل على ابتعاد الحرب عن ترسيمة صدام الحضارات، نشير إلى الدلالات التالية:

1 - صحيح أن القوى المساهمة بضرب العراق هي تحالف ينتمي إلى الحضارة الغربية (كاثوليك + بروتستانت)، وهذا يشكل صداماً مع الحضارة الإسلامية المستهدفة، لكن الملاحظ أن أول وأقوى من وقف ضدها، هم ينتمون إلى الحضارة الغربية ذاتها أي فرنسا وألمانيا (كاثوليك وبروتستانت) إضافة إلى روسيا الأرثوذكسية، وهم أصحاب الإسهام الأكبر في إظهار لا شرعية هذه الحرب، وإنها غزو لا أخلاقي ولا قانوني ولا إنساني، وعملوا على كبحها، مع الملاحظة أننا كما هو متبع في هذا الكتاب منذ البداية نستخدم مصطلحات هنتنجتون وتقسيماته الحضارية.

2 - مع أن الهجوم يقع على جهة مسلمة (تنتمي إلى الحضارة الإسلامية) فإن هناك جهات تنتمي إلى ذات الحضارة (الإسلامية) وتقوم بدور مناهض لمصلحة المسلمين (تقديم تسهيلات لجيوش الغزو، مشاركات لوجستيه، تمويل، قواعد.....

إلخ) في الهجوم على العراق، ضداً على إرادة الشعوب الإسلامية والشعور الإسلامي والعالمي المحب للسلام، والمصطف في مواجهة الحرب.

3 - الدلالة الأهم أن كل جهة من الجهات المعينة تعسكر في معسكر مصالحها. فالولايات المتحدة ومن معها، يريدون السيطرة على نفط العالم بأي ثمن، وذلك للتحكم باتجاهات النمو العالمي وحاجته الماسة إلى الطاقة، وقدرة أمريكا على ضبط إيقاع التوازنات الدولية ومنع الخروج على سيطرتها وزعامتها، أو تحدي القطب الواحد عملاً بالتوصيات الاستراتيجية التي تقول إن على أمريكا إذا أرادت الاحتفاظ بهيبتها ومكانتها أن تمنع أية قوة عالمية من الوصول إلى مستوى منافستها أو تحدي قوتها، وربما كانت السيطرة على منابع الطاقة والتحكم بها بإعطائها لمن تشاء ومنعها عمن تشاء، هو هدف أمريكا الأول، فيكون مفتاح التطور لأية جهة ناهضة في العالم في يدها، وقد كان هذا واضحاً في كل شوارع العالم المحتجة على الحرب من خلال الشعارات المرفوعة مثل (لا دم مقابل النفط)، لكن ما العمل؟ فلو كانت أمريكا تعلم أن النفط يكمن تحت كنيسة المهد ما ترددت في هدمها في سبيل الحصول عليه، ضاربة بالمقدسات وبالانتماء الحضاري عرض الحائط(44). أما الأوروبيون (ألمانيا وفرنسا وروسيا) الذين عارضوا الحرب ووقفوا ضد شرعنتها دولياً، فقد كانوا يرون في خلفية المشهد ويستشعرون الخطر على مصالحهم، وتناقضها مع مصالح الولايات المتحدة التي تجيش الجيوش في سبيلها، لذلك مانعوا، وهذا دليل على أن الصدام ليس صدام حضارات بل صدام المصالح. في الوقت ذاته فإن الجهات التي وافقت على الحرب من المسلمين أو التي سكتت عليها (وهي جهات رسمية غالباً) ضداً مع الشعوب في المنطقة والعالم، وكانت تسعى لتحقيق مصالح الحكام الآنية، وهذا يفسر الانخراط في تقديم التسهيلات للحرب وهي ذات طابع مصالحي يؤيد ما نرمي إليه، أو للحصول على بعض المكاسب المادية.

4 - هذه الحرب أطاحت بمفهوم العولمة والتوجه نحو تحقيق الحدود المفتوحة، لأنه يتنافى مع السيطرة على الطاقة الذي تسعى أمريكا إليه، مع أنها راعية العولمة وكأنها تقول، إن على العالم أن يستثني أمريكا وأفعالها ومصالحها وناسها وإرادتها من أية قيود أو ضوابط، سواء كانت تخدم العولمة أو العدالة الدولية أو غير

ذلك، فليس هناك تجارة حرة أوتفكير حر طالما أن القطارة الأمريكية هي التي تقطر النفط لمصانع وآليات ومدافئ العالم، وهذا يؤيده أيضاً اصطناع فكرة الحرب على الإرهاب ووضع اليد على نفط بحر قزوين والتحكم بإنتاجه وخطوط مروره وتوزيعه من خلال اقتراب قواتها المسلحة منه. وإلى ذلك أشار المثقف والمفكر غسان سلامة وزير الثقافة اللبناني عندما أشار إلى أن أمريكا لم تعد تريد العولمة وهي تسعى إلى تدميرها لأنها تفقدها السيطرة والتحكم، لذلك تعمل على صناعة عالمها الذي لا يشاركها فيه أحد(45).

5 - إن الولايات المتحدة التي تتسيد بما وصلت إليه من تطور رفيع المستوى، الحضارة الغربية، هي الآن في مأزق، هذا المأزق هو مأزق المكانة والمستوى، فقد وضعتها الظروف بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في موقف التفرد القطبي عالمياً، ومعلوم أنه لكي يكون هذا التفرد حضارياً، يجب أن يتم من خلال أدوات ومفردات الحضارة، ومفردات الحضارة لكي تنمو وتتطور تحتاج إلى التحدي والمنافسة، وهو ما تواجهه الحضارات في فترات نهوضها وشبابها لا في فترات شيخوختها حيث يكون عليها المحافظة على الوجود أو على النسق. والولايات المتحدة تجاوزت مرحلة شبابها وافتقدت المنافسة لزعامتها، فهي الآن تتربع على القمة، ولا يلي القمة إلا السفح وهي تخشى الانحدار وتناضل من أجل ألا تنحدر، وكتاب هنتنجتون ينضح بمثل هذا الشعور، كما أن انفرادها في الزعامة أعطى قوتها دفعة جديدة من الغطرسة أضافتها إلى ما كان لديها، فأظهرت يد البطش والصدام وأخفت يد الرحمة والسلام والحوار، إرهاباً للعالم وتنبيهاً إلى من يمكن أن يتجرأ على الزعامة، وهذه من علامات الشيخوخة والضعف الحضاري، فمن كان عليه أن يعطي وليس لديه ما يعطيه سيحاول البطش ليسكت الطلبات. إذن الأزمة هي أزمة زعامة الحضارة الغربية التي تدل المؤشرات على عدم وجود أو على تناقض المؤهلات لها. فقيادة الحضارة يفترض أن تختلف عن قيادة الهمجية.

إن هذا الرأي مدعوم بقوة من منظر صدام الحضارات، يقول هنتنجتون بعد تحليله لكل عناصر القوة والسيطرة: ((عصر السيادة الغربية سينتهي، وفي نفس

الوقت فإن اضمحلال الغرب وصعود مراكز قوى أخرى سينمي عمليات التأصيل الكونية والعودة إلى المحلية وصحوة الثقافات غير الغربية)) (46).

إن حمى الخوف من اقتراب النهاية، تدعو إلى تجديد البطش بالآخرين، لكن المستغرب هذا التفكير العنصري الذي يوحي بأن غياب الغرب يعني غياب الضوابط، وكأن الحضارات غير الغربية مليئة بالهمجية، والغرب هو الذي يجعل العالم أكثر إنسانية، والحقيقة تقول عكس ذلك، لماذا هذا الخوف على العالم من أن لا يعرف كيف يتدبر أمره لأنه قاصر وعاجز وسيعود إلى الأصولية؟ أليست هذه النظرة نرجسية وعنصرية؟ لقد أثبتت حضارات العالم أنها أكثر رحمة وإنسانية، وثقافاته تربي إنسانه على القيم الرفيعة، عكس الغرب الذي صنع جداراً بينه وبين العالم، غارودي يقول إنه حاز درجة التخرج في الفلسفة دون أن يعرف كلمة واحدة عن فلسفة الهند والصين والإسلام(47).

لا يستطيع عاقل ألا يقر بعظمة الحضارة الغربية، لكن أمثال هؤلاء المفكرين العنصريين يضعونها موضع المقت ويبقون الحقد عليها وعلى أفعالها حاضراً دوماً.

obeikandl.com

هوامش الفصل الرابع

1 - تيري ايجلتون ، فكرة الثقافة، ترجمة ثائر ديب، دار حوار للنشر والتوزيع. اللاذقية، بدون تاريخ النشر أو رقم الطبعة، ص.28

2 - أنطوني جيدنز، بعيداً عن اليسار واليمين، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة رقم /286/، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، أكتوبر /2002 ص21

3 - المرجع السابق ص30.

4 - د.محمد الجبر، الخطاب الثقافي المعاصر وصدام الحضارات، مجلة المعرفة السورية، السنة /41/ العدد /473/ شباط /2003/ ص126.

5 - د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 /1997/ ص128

6 - خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، سينا للنشر + الانتشار العربي، ط2 /1998/

7 - د. محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص129

8 - راجح الخوري، صحيفة النهار، الأحد 2002/12/8

9 - مارغريت فرنهايم، الإيمان والعقل والجنوسة، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، مجلة الثقافة العالمية، عدد /116/ يناير ـ فبراير /2003، حاشية ص188

10 - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق ص115

11 - د.عبد الرحيم الكريمي، صراع أم حوار بين الحضارات.. أم صراع ضد هيمنة النظام العالمي الجديد، النهج /33/ سنة /19/ شتاء /2003/ ص139.

12 - المرجع السابق ص140

obeikandi.com

13 - راجح الخوري، المرجع السابق

14 - روبرت فيسك، صحيفة الأندبندنت اللندنية، 15نيسان/2003

15 - روجه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة: د.عادل العوا، مع دراسة للأديب التونسي الكبير محمد مزالي، منشورات عويدات، بيروت - باريس /1978/ ط1 ص45

16 - المرجع السابق ص45

17 - المرجع السابق ص289

18 - المرجع السابق ص96

19 - عبد الرحيم الكريمي، المرجع السابق ص114

20 - د. محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص96.

21 - المرجع السابق ص97

22 - د.عادل العوا، المرجع السابق ، ص40

23 - المرجع السابق،ص45 ـ 46

24 - إدريس هاني، المرجع السابق ص113

25 - صامويل هنتنجتون، المرجع السابق ص295

26 - صامويل هنتنجتون، المرجع السابق ص295

27 - د. فيصل دراج، الخيال المهاجر و(أبلسة) المثقف العربي، مجلة النهج /23/ صيف /2003/

28 - منير العكش، مرجع سابق

29 - المرجع السابق ص80

30 - صدام الحضارات، مرجع سابق ص295

31 - المرجع السابق ص295

32 - جلبير الأشقر، صدام الهمجيات، مرجع سابق ص39

33 - المرجع السابق ص10

34 -المرجع السابق ص13 ـ 14

35 - روجه غارودي، مرجع سابق ص51

obeikandl.com

36 -المرجع السابق ص66

37 - المرجع السابق ص69

38 - محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأمريكية، مرجع سابق.

39 - روجه غارودي، المرجع السابق ص93

40 - جلبير الأشقر، المرجع السابق ص93

41 - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق ص420 فما بعد

42 - د.نجاح كاظم، العرب وعصر العولمة ـ المعلومات: البعد الخامس، المركز الثقافي العربي، ط1 /2002 ص17

43 - تيري إيجلتون، المرجع السابق ص153

44 - سمير اسحق، جريدة النور /95/ 2 نيسان/2003/

45 - د. غسان سلامة، حوار على شاشة تلفزيون المستقبل 2003/3/27

46 - صدام الحضارات، مرجع سابق ص150

47 - روجه غارودي المرجع السابق، ص186

❖❖❖

obeikandl.com